المسائل الصرفية في تفسير عبد الحميد بن باديس "في مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير"

د/ لخضر حداد
أستاذ محاضر- كلية العلوم الإسلامية
جامعة الجزائر

مقدمة:

لقد وجدنا كثيرا مِن الباحثين قد اهتموا بالقضايا اللّغوية ذات الصّلة بالنص القرآني، فكانت عنايتهم بها عناية فائقة، حيث تركّزت جلّ أبحاثهم في الحديث عن لغة القرآن الكريم، وأسلوبه وخصائصه التركيبية، وصوره البيانية، كما تعدّى هذا الاهتمام إلى نصوص الحديث النبوي الشريف، فتناولوا فيها أهم القضايا النحوية واللّغوية التي تضمّنتها تلك النصوص، وخلصوا إلى نتائج باهرة استحقت الإشادة والتنويه. ولم يُستثن من ذلك بعض كتب التّفسير التي حظيت هي الأخرى بالدّراسة والبحث في المسائل اللّغوية التي استوقفت المفسرين مُطوّلاً.

ومقالنا هذا يحاول الكشف عن أهم المسائل الصرفية التي عالجها العلامة الشيخ عبد الحميد بن باديس رحمه الله (ت 1359هـ - 1940م) في تفسيره "في مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير"، الذي لم يُكتب له أن يصل إلينا كاملا، ذلك أن الظروف الصعبة التي عاشها الشيخ لم تسعفه لتأليف الكتب، بل كان شغله الشاغل تأليف الرجال*، وإصلاح المجتمع الجزائري تربية وتعليما.

لقد تركزت جل البحوث والدّراسات حول جهود ابن باديس التربوية والتعليمية والإصلاحية، من خلال ما تبقى من آثاره التي جمعها الأوفياء من

تلامذته، ولكننا لم نجد في حدود ما اطّلعنا عليه، بحثا أكاديميا خُصّص للحديث عن جهود ابن باديس اللغوية.

ولمعالجة الموضوع اتبعنا الخطوات الآتية:

المبحث الأول: شخصية ابن باديس العلمية(**):

أولا: منهجه في التفسير ومصادره:

أشرنا سابقا إلى الظروف التي أحاطت بالعلاّمة ابن باديس، والتي حالت دون تأليفه للكتب، ولو قُدِّر للرجل أن يُصنّف في شتى العلوم لفعل، ولم يكن ذلك ليعجزه، بل كان همّه الوحيد هو تذكير الناس بدينهم وإرشادهم إلى طريق الحق، وحثّهم على التمسك بكتاب الله عزّ وجلّ وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم[1].

والمتأمّل لتفسير ابن باديس "في مجالس التذكير" سوف يخرج بخلاصة مفادها أن هذا السفر النفيس يمكن تصنيفه ضمن التفاسير التي اعتمدت المأثور، وبعض الآراء الراجحة من السلف والخلف. وقد صرّح الشيخ بن باديس عن المنهج الذي سلكه في تفسيره حيث قال: "على عادتنا في تفسير الألفاظ بأرجح معانيها اللغوية، وحمل التراكيب على أبلغ أساليبها البيانية، وربط الآيات، بوجوه المناسبات، معتمدين في ذلك على صحيح المنقول، وسديد المعقول، مما جلاه أئمة السلف المتقدمون، أو غاص عليه علماء الخلف المتأخرون، رحمة الله عليهم أجمعين"[2].

ويذكر الشيخ عبد الحميد بن باديس المصادر التي اعتمدها في تفسيره، قائلا: "وعمدتنا فيما نرجع إليه من كتب الأئمة:

1- تفسير "ابن جرير الطبري"، الذي يمتاز بالتفاسير النقلية السلفية، وبأسلوبه الترسلي البليغ في بيان معنى الآيات القرآنية، وبترجيحاته لأولى الأقوال عنده بالصواب.

2- وتفسير "الكشاف" الذي يمتاز بذوقه البياني في الأسلوب القرآني، وتطبيقه فنون البلاغة على آيات الكتاب، والتنظير لها بكلام العرب، واستعمالها في أفانين الكلام.

3- وتفسير "أبي حيان الأندلسي" الذي يمتاز بتحقيقاته النحوية واللغوية، وتوجيهه للقراءات.

4- وتفسير "الرازي" الذي يمتاز ببحوثه في العلوم الكونية، مما يتعلق بالجماد والنبات والحيوان والإنسان، وفي العلوم الكلامية، ومقالات الفرق، والمناظرة والحجاج في ذلك.

إلى غير هذا مما لا بد لنا من مراجعته من كتب التفسير والحديث والأحكام، وغيرها مما يقتضيه المقام"[3].

وفي تواضع جميل وأدب جمّ يختم ابن باديس افتتاحية مجلسه بقوله: "وإذا نظرنا إلى قصورنا، وخطورة مقام الكلام على كلام الله تعالى، أحجمنا، وإذا رأينا إلى فضل الله، وثقتنا به، وحسن قصدنا- في خدمة كتابه- أقدمنا.

وهذا الجانب الكريم أرجح عندنا، فنحن نقدم معتمدين على الله تعالى سائلين منه تعالى لنا ولكم أن يوفقنا إلى حسن القصد، وصحة الفهم، وصواب القول، وسداد العمل"[4].

وهكذا نستشف من كلام عالمنا، ملمحا من ملامح شخصيته القوية، وليس ذلك يبعث على الاستغراب، بل هو ديدن العلماء المخلصين العاملين.

ويرى بعض العلماء أن تفسير ابن باديس يُعدّ من أحسن التفاسير في العصر الحديث لولا التقصير الذي وقع في تدوينه كاملا، ومن هؤلاء المعجبين بتفسيره، العلامة الشيخ البشير الإبراهيمي الذي أثنى عليه، بعدما وجّه انتقادا لاذعا لبعض تفاسير القدامى، ورميها تارة بالتقليد، وأخرى بالجمود، مستثنيا في ذلك بعض التفاسير التي سلكت مسلك التّجديد والتّحرر من ربقة التقليد الأعمى، وفي هذا المعنى يقول العلامة البشير الإبراهيمي: "ومنهم من عمم، ولكن توسعه ظاهر في الأحكام، وأحكام العبادات والمعاملات، كالقرطبي، وابن عطية، وأضرابهما.

وكان جمود، وكان ركود، وضرب التقليد بجرانه، فقضى على ذكاء الأذكياء وفهم الفهماء، إلى أن أذن الله للعقل الإسلامي أن ينفلت من عقال التقليد، ويستقل في الفهم، وللنهضة العلمية الإسلامية أن يتبلج فجرها، ويعم نورها.

فكانت إرهاصات التجديد لهذا العلم ظاهرة في ثلاثة من أذكى علمائنا وأوسعهم اطلاعا:

"**الشوكاني، والألوسي، وصديق حسن خان**"؛ مع تفاوت بينهم في قوة النزعة الاستقلالية، وفي القدرة على التخلص من الصبغة المذهبية التقليدية..."، ثم يضيف الإبراهيمي قائلا: "فانتهت إمامة التفسير بعده ـ ويقصد الإمام محمد رشيد رضا ـ في العالم الإسلامي كله، إلى أخينا وصديقنا، ومنشئ النهضة الإسلامية العلمية بالجزائر، بل بالشمال الإفريقي "عبد الحميد بن باديس".

"كان للأخ الصديق "عبد الحميد بن باديس" رحمه الله ذوقا خاص في فهم القرآن كأنه حاسة، زائدة خص بها. يرفده- بعد الذكاء المشرق، والقريحة

الوقادة، والبصيرة النافذة- بيان ناصع، واطلاع واسع، وذرع فسيح في العلوم النفسية والكونية، وباع مديد في علم الاجتماع، ورأي سديد في عوارضه وأمراضه.

يمد ذلك كله شجاعة في الرأي، وشجاعة في القول، لم يرزقهما إلاّ الأفذاذ المعدودون في البشر.

وله في القرآن رأي بنى عليه كل أعماله في العلم، والإصلاح، والتربية والتعليم: وهو أنه لا فلاح للمسلمين إلاّ بالرجوع إلى هدايته والاستقامة على طريقته، وهو رأي الهداة المصلحين من قبله"[5].

ثانيا: ثقافته اللّغوية:

لقد شاءت الأقدار أن ينشأ الشيخ عبد الحميد بن باديس في أسرة متعلمة ومحافظة على قيم الإسلام ومبادئه، فنال حظّه من التربية والتعليم، وحفظ القرآن الكريم كاملا مع تجويده في سن مبكّرة على يد شيخه محمّد بن المدّاسي، كما تلقى دروسا في العلوم العربية والشرعية من العلامة الشيخ الونيسي التي كانت له اليد البيضاء في توجيهه وإرشاده.

وفي جامع الزيتونة واصل الشيخ في طلب العلم حيث تتلمذ على علماء أفذاذ ومشايخ أجلاء، أقرّ لهم بالفضل العلمي، وحسن التربية، ومن هؤلاء على سبيل المثال لا الحصر "محمّد النّخليّ القيروانيّ"، و"محمّد الطّاهر بن عاشور"، و"محمّد الخضر بن الحسين، وغيرهم رحمهم الله جميعا وأجزل مثوبتهم.

وقد بدت ملامح شخصية ابن باديس العلمية ترتسم عندما تخرّج في الزيتونة معتليا المرتبة الأولى في صف الناجحين، ولم يغادر تونس إلا بعدما مكث بها سنة كاملة في التّعليم والتّعلم.

وإذا عدنا إلى الحديث عن ثقافة ابن باديس اللّغوية، فإنّ عوامل عدّة مجتمعة، جعلت الرجل يكتسب ملكة*** لغوية متينة، وذوقا أدبيا راقيا، وتلك العوامل يمكن حصرها على النحو الآتي:

أ ـ حفظه للقرآن الكريم في سن مبكرة

ب ـ تحصيله العلمي المتنوع والتفوّق فيه

ج ـ تأثّره بشيوخه

د ـ حبّه الشّديد للّغة العربية

وأما عن ذوقه الأدبي الرّفيع، يقول توفيق محمد شاهين: "وهو أديب ذواقة، يعشق الأدب القديم والحديث، وينقده، ويعطي لطلابه وزائريه زبدة ما قرأ، ويوازن بين شعر وشعر، وينشر الملح والطرائف وله باب في الشهاب بعنوان "من أحسن القصص والأدب" جمع فيه بين كل طريف وظريف"[6].

وعن خصائص اللغة العربية وحكمتها، يقول ابن باديس: "فمن حكمة اللغة العربية الشريفة، أن سمت أصوات الحيوانات نطقاً، كما سمت- في المتعارف- اللفظ الذي يعبر به عما في الضمير نطقاً، لأن الأصوات لغير الإنسان تقوم مقام الألفاظ للإنسان، فهي طريق تفاهمها وطريق فهم ما يمكن للإنسان فهمه عنها.

فلله هذه اللغة ما أعمق غورها! وما أدق تعبيرها"[7].

إن اللّغة العربية التي ابتعدنا عنها وصارت غريبة في ديارنا، هي في فكر الشيخ بن باديس بمثابة السيروم الذي يتقوى به المريض، والأوكسجين الذي يتنفس منه مَن به حرج في صدره.

هكذا حُبِّب إلى الرّجل لغة القرآن الكريم حبا جما، بل وجعلها عنصرا مهما من العناصر المكوّنة للشخصية الجزائرية، فانصهرت في معادلة، صعُب تفكيك عناصرها، فكان ذلك الشعار الخالد والمضيء الذي من أجله أوقف الشيخ حياته،

وأفنى عمره في خدمته، والتفاني فيه، ألا وهو "الإسلام ديننا والعربية لغتنا والجزائر وطننا"، وبقي هذا الشعار منقوشا في ذاكرة تاريخ الجزائر المحروسة وشعبها، يستحيل نسيانه أو محو آثاره.

وإنّ من مظاهر اعتزاز الشّيخ باللّغة العربية أنه "عمل على إحياء الكتب العربية القديمة، واحتفل بها لتحيا رغم أنف الاستعمار"[8]. وكانت دروسه تُلقى بالعربية الفصحى، وقلّما ينزل إلى لغة العوام إلا في مواقف التفهيم والبيان، فيضطر حينئذ إلى الاستئناس بأمثلة من لغة التخاطب اليومي القريبة إلى العربية الفصحى، ومن ذلك ما جاء في تفسيره: "ولا يزال من أساليب العربية في لسان التخاطب الدّارج بيننا قول الناس لبعضهم: "كُلْمُه في كذا إذا نفع فيه الكلام" استبعاداً لنفعه فيه. ومن ذلك قوله تعالى: "فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ"[9].

وكثيرا ما كان الشيخ ينصح ويرشد إلى استعمال الأساليب البيانية الواضحة، والعبارات السّهلة حسب ما يقتضيه المقام، والظرف الذي يُساق فيه الكلام، وذلك كله من أجل ترغيب الناس في تعلم لغتهم، وعدم النفور منها وكراهيتها، وقديما قالوا لكل مقام مقال، وفي هذا السياق يقول ابن باديس: " وما يكون من البيان العلمي فيختار أسهل العبارات وأقربها للفهم حتى لا يحدث الناس بما لا يفهمون، فيكون عليهم حديثه فتنة وبلاء.

وما يكون من الكلام في مقام التنازع والخصام فيقتصر على ما يوصله إلى حقه في حدود الموضوع المتنازع فيه، دون إذاية لخصمة، ولا يعرض لشأن من شؤونه الخاصة به"[10].

ومما سبق ذكره علمنا مدى أهمية اللغة العربية ومكانتها عند ابن باديس، وعنايته بها عناية فائقة، وربما يرجع الفضل في ذلك بعد الله عزّ وجل إلى ما لقيه من تعليم وتربية من علماء ومشايخ أجلاء في الجزائر وتونس. ولم يتردد الشيخ ابن باديس في الاعتراف بفضلهم والثناء عليهم والدعاء لهم، حيث قال: " وإن

أنسى فلا أنسى دروسا قرأتها من ديوان الحماسة على الأستاذ ابن عاشور، وكانت مِن أول ما قرأت عليه، فقد حبّبني في الأدب والتفقه في كلام العرب، وبث فيّ روحا جديدا في فهم المنظوم والمنثور، وأحيت مني الشعور بعزّ العروبة والاعتزاز بها كما أعتز بالإسلام".

وتقدير ابن باديس لشيخه، واعتزازه به لم يكن يمنعه، من مخالفته وانتقاد بعض فتاواه.

وهذا دليل على رفض ابن باديس للتقليد الأعمى، بل كان يراه عائقا لبناء الشخصية العلمية والعملية، ولعل الفضل في ذلك يعود إلى ما تلقاه من علم وتوجيه على يد شيخه محمد النخلي القيرواني، حيث يقول عنه ابن باديس: "كنت متبرما بأساليب المفسّرين، وإدخالهم لتأويلاتهم الجدلية واصطلاحاتهم المذهبية في كلام الله..فذاكرت يوما الشيخ النخلي فيما أجده في نفسي من التبرم والقلق، فقال لي: "اجعل ذهنك مصفاة لهذه الأساليب المعقدة، وهذه الأقوال المختلفة، وهذه الآراء المضطربة، يسقط الساقط، ويبقى الصحيح وتستريح.. فوالله لقد فتح الله بهذه الكلمات القليلة عن ذهني آفاقا واسعة لا عهد له بها"[11].

ويبدو من خلال ما ذكره الشيخ ابن باديس "في غاية من الأهمية ودليل قاطع على مدى تأثره في تكوينه بهذين الأستاذين"[12].

وأحسب أن الشيخ عبد الحميد بن باديس يصدق عليه ما ذكره ابن قتيبة في تأويله حيث قال: "وإنما يعرف فضل القرآن من كثر نظره، واتسع علمه، وفهم مذاهب العرب وافتنانها في الأساليب"[13].

وهذا المعنى يعزّزه ما قاله الشيخ البشير الإبراهيمي في سياق حديثه عن "مجالس التذكير" والإشادة به، حيث قال: "ولكن الله تعالى أبى إلاّ أن يذيع فضله وعلمه. فألهمه كتابة مجالس معدودة من تلك الدّروس، وكان ينثرها فواتح لأعداد مجلة

"الشهاب" ويسميها "مجالس التذكير"، وهي نموذج صادق من فهمه للقرآن وتفسيره له،كما أنها نموذج من أسلوبه الكتابي"[14].

لا ريب أن النزعة الإصلاحية والدعوية هي السمة الغالبة في فكر المصلح عبد الحميد بن باديس، للظروف التي عاشتها البلاد، ولكن المتأمل لتفسير ابن باديس سوف يكتشف أن الرجل كان له باع طويل في علوم اللغة العربية وفقهها، بل وأجزم أنه أتى على جل مستويات الدراسة المعروفة عند الباحثين اللغويين، وأعني بذلك المستوى الصرفي والنحوي والدلالي.

المبحث الثاني: في المستوى الصرفي[15]: تعريفه اللغوي والاصطلاحي وأهميته:

1 ـ الصرف لغة:

يأتي الصرف بمعنى الدفع والرد[16]، يقال صرفته فانصرف، وصرّفته أصرّفه تصريفا، يقال فتصرّف، أي طاوع قبل التصريف[17]. قال الله عزّ وجلّ في محكم تنزيله: ﴿ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ﴾[18] وقال أيضا: ﴿أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ﴾[19].

2 ـ الصرف في الاصطلاح: التصريف علم بأصول تعُرف بها أحوال أبنية الكلم التي ليست بإعراب"[20].

يقول ابن السراج: "هذا الحدّ إنما سُمّي تصريفا لتصريف الكلمة الواحدة بأبنية مختلفة، وخصوا به ما عرض في أصول الكلام، وذواتها من التغيير، وهو ينقسم خمسة أقسام، زيادة وإبدال وحذف، وتغيير الحركة والسكون، وإدغام وله حد يعرف به"[21].

أما التعريف الذي أورده الشيخ الحملاوي، فلا يختلف عن سابقه إلا أنّه أضاف كلمة "بناء" إلى التّعريف حيث يقول: "علم بأصول يُعرف بها أحوال أبنية الكلمة التي ليست بإعراب ولا بناء"[22].

3 ـ أهمية علم التصريف:

وقد تحدث أهل العلم عن مكانة علم التصريف وأهميته، واستحسنوا تعلّمه بعد علم النحو، إذ رأوا فيه نوعا من المشقة والصعوبة للمبتدئ، وفي هذا المعنى يقول ابن جني (ت392هـ): "فقد كان من الواجب على من أراد معرفة النحو أن يبدأ بمعرفة التصريف؛ لأن معرفة ذات الشيء الثابتة ينبغي أن يكون أصلا لمعرفة حاله المتنقلة، إلا أن هذا الضرب من العلم لما كان عويصا صعبا بُدِئ قبله بمعرفة النحو، ثم جيء به بعد؛ ليكون الارتياض في النّحو موطئا للدخول فيه، ومُعينا على معرفة أغراضه ومعانيه, وعلى تصرف الحال"[23].

وقد تبنّى الفكرة نفسها ابن عصفور، وسار على خطى ابن جني، حيث قال: "وقد كان ينبغي أن يقدَّم علم التصريف على غيره من علوم العربية، إذ هو معرفة ذوات الكلم في أنفسها من غير تركيب. ومعرفة الشيء في نفسه، قبل أن يتركب، ينبغي أن تكون مقدمة على معرفة أحواله التي تكون له بعد التركيب. إلا أنه أخِّر للطفه ودقته، فجعل ما قدم عليه من ذكر العوامل توطئة له، حتى لا يصل إليه الطالب، إلا وهو قد تدرّب وارتاض للقياس"[24].

ومن الكلام السابق، يبدو لك جليا مدى أهمية علم الصرف وخصوصيته، بل لا يمكن أن يستغني عنه الباحثون في مجال الدّراسات اللغوية ذلك أنه "ميزان العربية؛ ألا ترى أنه قد يؤخذ جزء كبير من اللغة بالقياس، ولا يوصل إلى ذلك إلا من طريق التصريف"[25].

لقد أولى الشيخ عبد الحميد بن باديس عناية خاصة بهذا المستوى من الدراسة، وكان يلجأ إليه كلما تيقّن أنّه وسيلة للوصول إلى المعنى المراد من الآية.

وأضرب لك عزيزي القارئ مثالين اثنين من مجالس التذكير، لتتأكد من صحة كلامنا السابق والحكم عليه إن شئت، وهما:

المثال الأول: صيغة تَفَعَّل:

يقول الله عزّ في محكم تنزيله: "وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا"[26].

قال الشيخ ابن باديس وهو يفسّر الآية الكريمة: "والتّهجد: ترك الهجود: كالتحرج والتأثم، في ترك الإثم والحرج.

وبناء "تَفَعَّلَ" يكثر في التّحصيل كتعلّم وتقدّم. وجاء قليلاً في معنى الترك، والمراد منه هنا ترك النوم للقيام بالعبادة"[27].

الشيخ الطاهر بن عاشور: "والتهجد: الصلاة في أثناء الليل، وهو اسم مشتق من الهجود، وهو النوم. فمادة التّفعّل فيه للإزالة مثل التّحرّج والتأثّم"[28].

قال الشوكاني في تفسيره: "وقال الأزهري: الهجود في الأصل هو النوم بالليل، ولكن جاء التفعل فيه لأجل التجنب، ومنه تأثم وتحرج أي: تجنب الإثم والحرج"[29].

وأنت ترى من خلال ما أوردناه أنّه لا خلاف عند المفسرين في معنى صيغة "تفعّل"، كالترك والتجنب والإزالة والمعنى واحد، وأضاف الشيخ ابن باديس معنى "التحصيل"، وربما كان يقصد معنى التكلف، لأن التعلم والتقدم يقتضيان بذل الجهد والله أعلم.

وصيغة "تفعّل" تأتي للتعدية وغير التعدية كما ذكر ابن عصفور في الممتع حيث قال: " فالمتعدية نحو: تلقّفْتُه، قال تعالى: ﴿تُلَقَّفُ ما يأفِكُونَ﴾[30]، وتَخَبَّطَهُ الشَّيطانُ، قال تعالى: ﴿كالَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيطَانُ مِنَ المَسِّ﴾[31]. وغير المتعدّية نحو: تَحَوَّبَ وتأثَّمَ[32].

ويأتي الفعل المجرد المزيد بحرفين "تفعّل" لخمسة معان، كما ذكر الشيخ الحملاوي، وحصرها ابن عصفور في ثمانية معان وهي:

1 ـ أن تكون مطاوعة لـ"فَعَّل"، كقولك: كسَّرته فتَكَسَّر وقطَّعْته فتَقَطَّع.

2 ـ الحرص على الإضافة: فإذا أراد الرجل أن يدخل نفسه في الشجعان والحلماء قيل: تشجّع وتحلّم.

3 ـ أَخْذُ جزءٍ بعد جزء: نحو: تنقصته وتجرعته وتحسيته أي: أخذت منه الشيء بعد الشيء.

4 ـ الخَتْلُ: كقولك: تغفله أي: أراد أن يختله عن أمر يعوقه عنه. وتملقه نحو ذلك؛ لأنه إنما يديره عن شيء.

5 ـ التوقع: كقولك: تخوفه؛ لأن مع التخوف توقع الخوف.

6 ـ الطلب كـ"استفعل": نحو: تنجز حوائجه واستنجزها.

7 ـ التكثير: كقولك: تعطّينا، بمعنى تنازعنا.

8 ـ الترك: كقولك: تحوب وتأثم أي: ترك الإثم والحوب"[33].

المثال الثاني: صيغة فَعَّلَ وأَفْعَلَ:

يقول المولى عز وجل في محكم تنزيله: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا. الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا﴾[34].

إن ما يلفت النظر هنا، أن الشيخ عبد الحميد باديس يركز ـ كعادته ـ على دلالة الصيغة الصرفية، كمنطلق للوصول إلى المعنى المراد من الآية.

ولا ريب أن القرآن الكريم نزل مفرقا على فترات لحكمة ومقاصد أرادها الله سبحانه وتعالى، وللتعبير عن هذا المعنى يقول بن باديس: " مادة: ن ز ل[35]، كلها ترجع إلى معنى الهبوط من عل، والحلول في أسفل.

ونزّل المضاعف أبلغ في المعنى من أنزل، وقد يفيد كثرة النزول كما هنا؛ لأنه نزله مفرقاً على نيف وعشرين سنة. وقد يفيد القوة في نزول واحد كما في قوله تعالى: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً﴾[36]؛ لأن تنزيل الجملة أقوى من إنزال التفصيل"[37].

يرى ابن باديس أنّ صيغة "فَعَّل" من دلالتها على الكثرة والمبلاغة أفادت معنى استغراق وقت طويل، وبذلك يكون معنى الصيغة التدرج والتكرار. ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾[38]، وقد علّل الزمخشري اختيار "نزّل" على أنزل؛ لمناسبته مقام التحدي[39] عندما قالوا:﴿لَوْلا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً واحِدَةً﴾[40]. يقول الطاهر ابن عاشور: "فلما كان ذلك من مثارات شبههم ناسب ذكره في تحديهم أن يأتوا بسورة مثله منجمة"[41].

وأما صيغة "أفعل" فهي تفيد النزول جملة واحدة، وإن كانت مشاركة لصيغة "نزّل" في التعدية التي أفادت القوة، أو كما قال الطاهر بن عاشور: "وإنما التضعيف يؤذن بقوة الفعل في كيفيته أو كميته، في الفعل المتعدي بغير التضعيف"[42].

وقد تفطن إلى هذا المعنى الشيخ بن باديس، قائلا: ونُزّل يأتي مرادفاً لأنزل والتّضعيف أخو الهمزة، ويأتي مفيداً للتكثير فيفيد تكرر النزول وتجديده"[43].

وخرج على هذا قوله تعالى: ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ -من الكتاب- وَأَنْزَلَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾[44].

وأما هنا فلا يصح حمله على التكثير المفيد للتدريج، لئلا يناقض قولهم جملة واحدة، فيكون من التضعيف المرادف للهمزة"[45].

هذه بعض معاني صيغتي فَعَّلَ وأفْعَلَ، التي وردت في سياق الآيات السابقة، وقد تحمل دلالات أخرى مختلفة بالنظر إلى موقعها في سياق الكلام.

ونستطيع القول أن الشيخ عبد الحميد بن باديس يعتبر المعنى الصرفي أو المعجمي من أهم العناصر اللغوية المحددة للمعنى، ولا ريب أن ثمة عناصر لغوية أخرى مهمة تُسهم إلى حد كبير في تجلية المعنى المراد من الآية، أو السّياق اللغوي بصفة عامة، ولا يسع المقام هنا لسردها أو عرضها، وسيأتي بيان ذلك لاحقا.

وفي مجالس التذكير أمثلة أخرى مما ذُكر آنفا، ندعو القارئ العربي إلى إعمال النظر فيها والتأمل في أسرارها، من ذلك ما أشار إليها بان باديس قائلا: "والجهاد بذل الجهد من ناحيتك في مقابلة من هو باذل جهده في الناحية المقابلة لك، هذا مقتضى صيغة فعال"[46].ويقول في موضع آخر:" وأفاد قوله تعالى: "(أحسن)، بصيغة اسم التفضيل أن علينا أن نتخير في العبارات الحسنة، فننتقي أحسنها في جميع ما تقدم من أنواع مواقع الكلام"[47]. ويقول أيضا: "الخبء: الشيء المخبوء، و"فَعْل" بمعنى "مفعول"، يقال: خبأت الشيء أخبؤه خبأ، بمعنى: سترته عن العيون"[48].

خاتمة:

ومما سبق ذكره، فقد لمسنا "في مجالس التذكير" جانبا مهما من الدرس اللغوي عند الإمام عبد الحميد ابن باديس، متمثلا في المستوى الصرفي، وكنا نأمل عرض جميع القضايا اللغوية الواردة في هذا السفر النفيس، إلا أن المقال لم يخصص لذلك. وقد أشرت من قبل أنني سوف أقدم للقارئ دراسة متكاملة حول جهود ابن باديس اللغوية، في قادم الأيام إن شاء الله تعالى.

ومن أهم الملاحظات التي خلص إليه المقال ما يأتي:

أولا: يعتبر ابن باديس عالما من علماء هذه الأمة، ومرجعا من مراجعها في العلوم الإسلامية، ومجاهدا من مجاهديها بعلمه وقلمه، أفنى عمره من أجل الإسلام والعربية والجزائر.

ثانيا: لاحظنا من خلال دراستنا هذه سعة اطلاع الإمام بالعلوم العربية، بل إن الدرس اللغوي حاضر في مجالس التذكير بمستوياته المعروفة لدى الباحثين اللغويين المحدثين، من صرف ونحو ودلالة، واكتفينا نحن بعرض المستوى الصرفي فقط.

ثالثا: لقد بدا لي أن من أبرز خصائص منهج ابن باديس في معالجة بعض المسائل الصرفية، هو البحث عن الدليل واتباعه دون تعصب لمذهب أو لإمام، وكشف لنا هذا المنهج عن سعة اطلاع الرجل والتزامه الدقيق في التحليل، وعدم قناعته بظواهر النصوص بل كان يغوص في معانيها ومقاصدها للوصول إلى المبتغى، وقد دل ذلك على رجاحة رأي، وأصالة فكر، وشخصية علمية فذة.

رابعا: يعتبر السياق اللغوي عند الشيخ ابن باديس، أساسا وركيزة للتحليل الصرفي، بغية الوصول إلى النتائج والحكم عليها، وتوجيهها الوجهة السليمة.

خامسا: إني لأرجو من إخواني الأساتذة القائمين على تدريس مادة التفسير اللغوي، حثّ طلبتنا الأعزاء على قراءة هذا التفسير القيم "في مجالس التذكير"، قراءة واعية، كما أدعو طلبة الدارسات العليا في قسم اللغة والدراسات القرآنية، إلى التفكير في بحث أكاديمي جاد يتناول القضايا اللغوية في كتابنا هذا.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

المصادر والمراجع

- القرآن الكريم

1 ـ آثار ابن باديس، عمار طالبي، الشركة الجزائرية، ط 3، 1417هـ ـ 1997م، مج 1.

2 ـ أساس البلاغة، جار الله الزمخشري، تح: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان.

ط 1، 1419 هـ – 1998م.

3 ـ الإنصاف في مسائل الخلاف بين النحويين البصريين والكوفيين، عبد الرحمن بن محمد، كمال الدين بن الأنباري، المكتبة العصرية، ط 1، 1424هـ– 2003م.

4 ـ تأويل مشكل القرآن، ابن قتيبة الدِّينَوَرِي، تح: إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان.

5 ـ التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور، الدار التونسية للنشر، تونس، 1984م.

6 ـ التعريفات، الشريف على الجرجاني، دار الكتب العلمية، بيروت ـ لبنان.

7 ـ شذا العرف في فن الصرف، أحمد الحملاوي، مطبعة دار الكتب المصرية، ط 5، القاهرة 1927م.

8 ـ شرح شافية ابن الحاجب، محمد بن الحسن الاستراباذي، تح: د. عبد المقصود محمد عبد المقصود، مكتبة الثقافة الدينية، ط 1، 1425 هـ– 2004م

9 ـ شرح الملوكي في التصريف، ابن يعيش، تح: فخر الدين قباوة، دار الأوزاعي للطباعة والنشر، ط 2، بيروت ـ لبنان.

10 ـ فتح القدير، الشوكاني، دار ابن كثير، دار الكلم الطيب – دمشق، بيروت، ط 1، 1414 هـ.

11 ـ في مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير، تح: أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية بيروت- لبنان، ط 1، 1416هـ/ 1995م.

12 ـ الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، جار الله الزمخشري، دار الكتاب العربي – بيروت.

13 ـ كشاف اصطلاحات الفنون، التهانوي، تقديم وإشراف ومراجعة، د. رفيق العجم، تح: د.على دحروج، مكتبة ناشرون، بيروت ـ لبنان، ط 1، 1996م.

14 ـ المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، الفيومي، المكتبة العلمية، بيروت، لبنان.

15 ـ معجم مفردات ألفاظ القرآن، تح: نديم مرعشلي، الراغب الأصفهاني، دار الكاتب العربي، 1972م.

16 ـ مقدمة ابن خلدون ، تح: أ. درويش الجويدي، بيروت ، المكتبة العصرية ، ط2، 2003م.

17 ـ الممتع في التصريف، ابن عصفور الإشبيلي، تح: فخر الدين قباوة، دار الآفاق الجديدة، ط 2، بيروت ـ لبنان، 1979م.

18 ـ المنصف، ابن جني، دار إحياء التراث القديم، ط 1، 1373هـ – 1954م.

الهوامش

*) ـ أثر عن ابن باديس قوله: "شغلنا تأليف الرجال عن الكتب". انظر، في مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير، تح: أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية بيروت- لبنان، ط 1، 1416هـ/ 1995م، ص 14.

**) ـ لمزيد بيان في شخصية ابن باديس العلمية، وتفصيل القول فيه، انظر ما كتبه توفيق محمد شاهين في مقدمة التفسير، ص9 ـ 11.

1) ـ جاء في الحديث: "إنَّ خيرَ الحديثِ كتابُ اللهِ، وخيرَ الهدي هديُ محمدٍ صلى الله عليه وسلم، وشرَّ الأمورِ مُحْدَثاتُها، وكلَّ بدعةٍ ضلالةٌ"، رواه مسلم برقم(867)، وقوله صلّى الله

عليه وسلم: "عَليكُمْ بِسُنَّتِي وسُنَّةِ الخلفاءِ الراشدينَ المَهْديينَ، عَضُّوا عليها بالنَّواجِذِ، وإيَّاكُمْ ومُحْدَثاتِ الأُمُورِ، فإنَّ كُلَّ بِدْعةٍ ضَلالَةٌ" رواه أحمد (4/ 126) وأبو داود برقم (4607) والترمذي برقم (2676)، وصححه.

2) ـ في مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير، ص .41

3) ـ المصدر السابق، الصفحة نفسها.

4) ـ المصدر السابق، ص .42

5) ـ المصدر السابق، ص19.

***) ـ وفي تحصيل الملكة اللغوية يقول العلامة ابن خلدون: "اعلم أنَّ اللغات كلَّها ملكاتٌ شبيهةٌ بالصناعة، إذ هي ملَكاتٌ في اللسان، للعبارةِ عن المعاني وجودتها وقصورِها بحسبِ تمامِ الملكةِ أو نقصانِها. وليسَ ذلك بالنظرِ إلى المفردات، وإنما هو بالنظر إلى التراكيب. فإذا حصلت الملكة التامة في تركيب الألفاظ المفردة للتعبير بها عن المعاني المقصودة، ومراعاة التأليف الذي يطبق الكلام على مقتضى الحال ، بلغ المتكلم حينئذ الغاية من إفادة مقصوده للسامع، وهذا هو معنى البلاغة . والملكات لا تحصلُ إلا بتكرار الأفعال لأن الفعل يقعُ أولاً وتعودُ منه للذاتِ صفة، ثم تتكرر فتكونُ حالاً. ومعنى الحال أنها صفةٌ غير راسخة، ثم يزيدُ التكرارُ فتكونُ ملكةً أي صفةً راسخةً" . مقدمة ابن خلدون ، تح: أ. درويش الجويدي، بيروت ، المكتبة العصرية ، ط2، 2003، ص554 .

6) ـ في مجالس التذكير، ص .9

7) المصدر السابق، ص .257

8) ـ انظر، المصدر السابق، ص 10

9) ـ ق/ 45. وانظر، المصدر السابق، ص .26

10) ـ المصدر السابق، ص.114

11) ـ آثار ابن باديس، عمار طالبي، الشركة الجزائرية، ط 3، 1417هـ ـ 1997م، مج 1، ص.78

12) ـ المرجع السابق، الصفحة نفسها.

13) ـ تأويل مشكل القرآن، ابن قتيبة الدّيْنَوَري، تح: إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان.

ص .17

14) ـ في مجالس التذكير، ص.21

15) ـ يقال الصّرف والتّصريف، وهما بمنزلة واحدة، قال صاحب كشاف اصطلاحات الفنون: "التّصريف هو علم الصرف" ويسمى أيضا علم التصريف. انظر، كشاف اصطلاحات الفنون، التهانوي، تقديم وإشراف ومراجعة، د. رفيق العجم، تح: د.على دحروج، مكتبة ناشرون، بيروت ـ لبنان، ط 1، 1996م، ص 16.

ويرى البصريّون أنّ "الأصل في الأسماء كلها الصرف". انظر، الإنصاف في مسائل الخلاف بين النحويين البصريين والكوفيين، عبد الرحمن بن محمد، كمال الدين بن الأنباري، المكتبة العصرية، ط 1، 1424هـ– 2003م، 2/ .399

16) ـ التعريفات، الشريف على الجرجاني، دار الكتب العلمية، بيروت ـ لبنان، ص .174

17) ـ شرح الملوكي في التصريف، ابن يعيش، تح: فخر الدين قباوة، دار الأوزاعي للطباعة والنشر، ط 2، بيروت ـ لبنان، ص.19

18) ـ آل عمران/ .152

19) ـ هود/ 8.

انظر، معجم مفردات ألفاظ القرآن، تح: نديم مرعشلي، الراغب الأصفهاني، دار الكاتب العربي، 1972م، مادة "صرف"، وأساس البلاغة، الزمخشري، مادة صرف/ 353، وابن منظور، مادة صرف.

20) ـ شرح شافية ابن الحاجب، محمد بن الحسن الاستراباذي، تح: د. عبد المقصود محمد عبد المقصود، مكتبة الثقافة الدينية، ط 1، 1425 هـ– 2004م، 1/ .1

21) ـ الأصول في النحو، ابن السراج، أبو بكر بن سهل، تح: عبد الحسين الفتلي، مؤسسة الرسالة، ط 4، بيروت ـ لبنان، 1999م, 3/ 231.

22) ـ أحمد الحملاوي، شذا العرف في فن الصرف، مطبعة دار الكتب المصرية، ط 5، القاهرة 1927م، ص.3

23) ـ المنصف، ابن جني، دار إحياء التراث القديم، ط 1، 1373هـ - 1954م، ص.3

24) ـ الممتع في التصريف، ابن عصفور الإشبيلي، تح: فخر الدين قباوة، دار الآفاق الجديدة، ط 2، بيروت ـ لبنان، 1979م، 1/ 30.

25) ـ المصدر السابق، ص 27. وانظر أيضا، شرح الملوكي في التصريف، ابن يعيش، ص.17

26) ـ الإسراء/ 79.

27) ـ في مجالس التذكير، ص.137

28) ـ التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور، الدار التونسية للنشر، تونس، 1984م. 15/ 185.

29) ـ فتح القدير، الشوكاني، دار ابن كثير، دار الكلم الطيب - دمشق، بيروت، ط 1، 1414 هـ، 3/ 298.

30) ـ الأعراف/ 117، والشعراء/ 45.

31) ـ البقرة/ 275.

32) ـ الممتع في التصريف، ص 126.

33) ـ المصدر السابق، ص 126 ـ127 , وانظر، شذا العرف في فن الصرف، الحملاوي، ص 33.

34) ـ الفرقان/ 1 ـ 2.

35) ـ يقول الفيومي: "نزل من علو إلى سفل ينزل نزولا ويتعدى بالحرف والهمزة والتضعيف فيقال نَزَلْت به وأَنْزَلْتُه ونَزَّلته واستَنزَلْتُه بمعنى، أَنْزَلْتُه". انظر، المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، الفيومي، المكتبة العلمية، بيروت، لبنان، ص 601.

36) ـ الفرقان/ 32.

37) ـ في مجالس التذكير، ص 153.

38) ـ البقرة/ 23.

39) ـ الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، جار الله الزمخشري، دار الكتاب العربي – بيروت، ط 3 ، 1407 هـ 1/ 96.

40) ـ الفرقان/ 32.

41) ـ التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور، 1/ 336.

42) ـ المصدر السابق، 3/ 147.

43) ـ في مجالس التذكير، ابن باديس، ص 177.

44) ـ آل عمران/ 3.

45) ـ في مجالس التذكير، ص177.

46) ـ المصدر السابق، ص 187.

47) ـ المصدر السابق ص114

48) ـ المصدر السابق، ص275.